﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان ما أعدّه اللهُ لنساء النبيّ خاصّةً جاء التّبشيرُ عامّة

لَمّا عرضَ اللّهُ تعالى أماناته على أهلِ بيتِ النبيّ ﷺ، واستحفظهم رعايتها، ووعدهم على الوفاء بها الأجرَ الجزيلَ، وحذّر بمضاعفةِ العقاب لو قُدِّرَ عدَمُ الامتثالِ، وبيّن أنَّه ليس مِثلَهنَّ أحدٌ مِنَ النِّساءِ، وأثنى على آل البيت بخيرٍ، فإنّ نفوسَ المسلمين والمسلمات تشوّقتْ لخيرٍ لهم كالذي حصل لآل البيت الطّاهرين، فبشّر اللّهُ كلَّ مصدّقٍ ومصدّقةٍ بالحقّ، مستقيمٍ على الهدى والبرّ والرّشد ومستقيمة؛ برحمةٍ منه ورضوان وعفوٍ وغفران، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[1].

شمولُ الرسالة يقتضي عمومَ الخطاب لأمّهات المؤمنين وللرجال وللنساء

لَمّا حثّ سبحانه على المكارم والأخلاق الزّاكية، وختمَ بالتّذكير بالآيات والحكمة؛ أتبعهُ بما اتّصف به أهل البيت بما يدعو إليه ذلك من صفاتِ الكمال، ولكنّه ذكرَهُ على وجهٍ يعمُّ غيرَهم من ذَكَرٍ وأنثى؛ مشاكلةً لعمومِ الدّعوةِ وشمولِ الرّسالةِ، فقالَ - جوابًا لقول النساء: يا رسول الله، ذكَرَ اللّهُ الرّجالَ ولم يَذكُرِ النساء بخيرٍ، فما فينا خيرٌ نُذكرُ به؟ إنّا نخافُ أنْ لا يقبلَ منّا طاعة -: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[2].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 664، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 269.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾: (خشع) أصلٌ يدلّ على التّطامن، يُقال خَشَعَ إذا تطامنَ وطأْطأ رأسَه، والخاشِعُ: المُسْتَكينُ والرّاكِعُ[1]، وخَشَعَ: خَضَعَ وذلّ وخافَ، فالخُشوعُ: السُّكونُ والتَّذَلُّلُ[2]، والتّخشُّع للّه: الإخباتُ والتّذلُّل والتّواضع، ويكون في البَدَنِ والصَّوت والبَصَر[3]، ومعنى الخاشعين في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: المتواضعينَ للّه بقلوبِهم وجوارِحِهم والخائفين منه، والمتذلّلين له بالطاعة[4].

2) ﴿فُرُوجَهُمْ﴾: (فرج) أصلٌ يدلّ على تَفَتُّحٍ في الشَّيْءِ[5]، والفَرْجُ: الشَّقّ والخَلَلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ ومنه الفَرْجُ للعورة، فهي تُستعملُ لفتحةِ ما بين الرِّجْلَيْن[6]، فالفَرْجُ: اسمٌ يجمعُ سوءاتِ الرِّجال والنّساء والقُبُلانِ وما حوالَيْهما، أي: هو العَوْرة[7]، ومعنى فروجهم في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: عوراتهم[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صِفاتٌ تُكوّنُ النّفسَ المسلمة، الرِّجالُ والنّساءُ فيها سواء

يقولُ اللّهُ تعالى مبيِّنًا أُمّاتِ الفضائلِ، وما أعَدَّه للمتَّصفينَ بها: إنّ الرِّجالَ والنِّساءَ المُستَسلِمينَ للّه، المُنقادينَ له بطاعتِه، والمؤمنينَ والمؤمناتِ باللّه، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه، والمُطيعينَ والمُطيعاتِ للّه فيما يأمُرُهم ويَنْهاهم، المُداوِمينَ على طاعتِه بذُلٍّ وخُضوعٍ وسُكونٍ، والصّادقين والصّادقاتِ في عقائِدِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فلا يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنون، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشع).
(2) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خشع).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (خشع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 268، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 104.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرج).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرج).
(7) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (فرج).
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 76، والهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 22.

يَكذِبون، ولا يُراؤون، ولا يُخلِفون الوَعدَ، ولا يَنقُضونَ العَهدَ مع اللّهِ ومع عِبادِه، والصّابِرينَ والصّابراتِ على التَّمسُّكِ بالدّينِ وفِعلِ الطّاعاتِ، وتَركِ المعاصي والشَّهواتِ، وتحمُّلِ المصائِبِ والمشَقّاتِ، والخائِفينَ والخائِفاتِ مِن اللّهِ، المتواضِعينَ الخاضِعينَ له في صَلاتِهم وفي جميعِ أحوالِهم، والمؤدّينَ والمؤدّياتِ الصَّدَقاتِ، والمتعَبِّدينَ والمتعَبِّداتِ للّهِ تعالى بالصّيامِ، والحافِظينَ فُروجَهم عمّا لا يَحِلُّ مِن الزِّنا وغَيرِه، إلّا على أزواجِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِن الإماءِ، والحافِظاتِ فُروجَهنَّ كذلك إلّا على أزواجِهنَّ إنْ كُنَّ حرائِرَ، أو أسيادِهنَّ المالِكينَ لهنَّ إنْ كُنَّ إماءً، والذّاكِرينَ والذّاكراتِ اللّهَ ذِكرًا كَثيرًا - أعدَّ اللّهُ لأولئك الرِّجالِ والنِّساءِ المتَّصِفينَ بتلك الصِّفاتِ مَغفِرةً، فيَستُرُ ذُنوبَهم ولا يؤاخِذُهم بها، وأعدَّ لهم أجرًا عَظيمًا[1].

وروي في سببِ نزولِ الآيةِ أنّ أمَّ سَلَمةَ ﵂ قالت: ما لنا لا نُذْكَرُ في القُرْآنِ كَما يُذكرُ الرِّجالُ؟ فأنزل اللّه الآية[2]، وعن أُمِّ عُمارةَ الأنصاريَّةِ ﵂ أنَّها أتَتِ النَّبيَّ ﷺ فقالت: ما أرى كُلَّ شَيءٍ إلّا للرِّجالِ، وما أرى النِّساءَ يُذكَرْنَ بشَيءٍ! فنَزَلت هذه الآيةُ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

إجابةٌ عن سؤالٍ مطروحٍ: هل ما سبقَ هو خاصٌّ بأمّهات المؤمنين

فصَلَ البيانُ الحكيمُ جُملة ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّا قبلها؛ لِما بينهما من شبهِ كمال الاتّصال؛ إذ جاءتْ هذه الجملة استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿*وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ وقولَه: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يُثيرُ في نُفوسِ المُسلِماتِ أنْ يَسألْنَ: أهنَّ مَأجوراتٌ على ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 268 - 269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21 - 22.
(2) النَّسَائِيّ، السنن الكبرى، الحديث رقم: (11405)، ومسند الإمام أحمد، الحديث رقم: (26645).
(3) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (3211).

يَعمَلْنَ مِن الحَسناتِ؟ وأهُنَّ مَأموراتٌ بمِثلِ ما أُمِرَتْ به أزواجُ النَّبيِّ ﷺ، أمْ تلك خَصائصُ لِنِساءِ النَّبيِّ ﷺ؟ فكان في هذه الآيةِ ما هو جَوابٌ لهذا السُّؤالِ، على عادةِ القرآنِ فيما إذا ذَكَر مَأمورات يُعقبُها بالتَّذكيرِ بحالِ أمْثالِها، أو بحالِ أضْدادِها، ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا ورَدَ بمُناسَبةِ ما ذُكِرَ مِن فَضائلِ أزواجِ النَّبيِّ ﷺ[1].

دلالة التوكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾:

التأكيدُ يدفعُ شكَّ من شكَّ في هذا الحكمِ من النساء

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ هذا الخَبرِ وهو إعدادُ اللّهِ المغفرةَ والأجرَ العظيمَ للنساء والرّجال ممَّن اتّصفوا بالإسلامِ والإيمانِ والقنوتِ والصدق وغير ذلك مما ذُكر بحَرْفِ ﴿إِنَّ﴾؛ ليدفَعَ شَكَّ مَن شكَّ في هذا الحُكمِ مِن النِّساء؛ بحسب ما روي فيما مضى من سببِ نزول الآيةِ، وكذلك أتى بالتأكيد "لأجلِ كثرةِ المنافقين المكذّبين بمضمون هذا الخبر وغيرهم من المصارحين"[2].

بلاغة التسوية في ذكر الأوصاف:

اختلافُ النّوعِ موجبٌ للعطفِ مُعلِمٌ بالتّشريكِ في الحكم

ما سبقَ من سببِ نزول هذه الآية يبيّن أنّ المقصودَ مِن أصحابِ هذه الأوصافِ المذكورةِ هم النِّساءُ، وأمّا ذِكرُ الرِّجالِ، وعطْفُ النّساء عليهم؛ فاشتراكُ للصنفين في هذه التّشريعات المذكورة، وأنَّهما فيها سواءٌ[3]؛ ليَعلموا أنَّ الشَّريعةَ لا تختصُّ بالرِّجالِ، كشَريعَةِ التَّوراةِ الخاصِّ مُعظَمُها بالرِّجالِ، فَشَريعَةُ الإسْلامِ تعُمَّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلّا ما نُصَّ على تخصيصِه بأحدِ الصِّنفَين، أي: إنّ هذه الآية وأمْثالها تقَرَّرُ أصلَ التَّسويةِ في التَّكليفِ والجزاءِ بين الرجال والنّساء، بما أغنى عن التَّنبيهِ عليه في مُعظَمِ أقوالِ القُرآنِ والسُّنَّةِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 20.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 461.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21.

علّة الإطناب في تعديد الأوصاف:

يقتضي المقامُ زيادةَ البيانِ وإزالةَ التّوهّم

سلكَ النّظمُ الحكيمُ مَسْلَكَ الإطْنابِ في تِعْدادِ الأوْصافِ في الآية؛ لئلّا يُتوهَّمَ التَّسويةُ في خُصوصِ صِفةٍ واحِدةٍ، ولِأنَّ المَقامَ لِزيادةِ البيانِ لاخْتِلافِ أفهامِ النّاسِ في ذلك، عَلَى أنَّ في هَذا التِّعْدادِ أيضًا إيماءً إلى أصولِ التَّشْريعِ في الإسلام[1].

دلالة التعبير عن الصفات بصيغة الجمع:

كثرةُ المتّصفين بهذه الصفات يبعثُ في النّفس الطمأنينة والأمل

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن الصفات الواردة في الآية بصيغة الجمع مراعاةً لما هوَ في الواقع من أنّ المتّصفين بهذه الصفات جمعٌ وليسوا أفرادًا، وفي هذا إشارةٌ إلى كثرةِ المتّصفين بهذه الصفات، ممّا يبعثُ في النّفس الطمأنينة والأمل، ويحفّزُ النّفسَ على الاتّصاف بهذه الصفات؛ إذ عملُ الجماعة مرغوبٌ مندوبٍ إليه، وفيه إيماءٌ إلى فضلِ الجماعة والحثّ على العمل الجماعي، وكذلك موافقةً لنظم الآيات السابقة التي جاء غالبيتها بصيغة الجمع، كما أنّ الجمع أضافَ إلى الآية إيقاعًا موسيقيًا خاصًّا من خلال المدّ في الياء والنون في جمع المذكر السالم، وفي الألف والتاء في جمع المؤنث السالم.

سرُّ عَطْفِ هذه الصِّفاتِ بالواوِ:

تمكينُ المتّصفين من كلّ وصفٍ وما أُعدّ لهم

عَطْفُ هذه الصِّفاتِ الواردة في الآية كلّها بالواوِ المُفيدِ مُجَرَّدَ التَّشْريكِ في الحُكْمِ دونَ حَرْفَيِ التَّرتيبِ: الفاءِ و(ثُمَّ)، يُفيدُ تمكينَ الجامعين لهذه الأوصاف من كلّ وصفٍ منها[2]، ويُفيدُ كذلك أنْ يكونَ الحُكْمُ المذكورُ معه ثابتًا لكلِّ واحدٍ اتَّصَفَ بوَصفٍ مِن الأوصافِ المُشتقِّ منها مَوصوفُه؛ لأنَّ أصلَ العَطفِ بالواوِ أنْ يدُلَّ على مُغايَرَةِ المَعطوفاتِ في الذّاتِ، ولِهَذا فَحَقُّ جُمْلَةِ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أن تكونَ خَبَرًا في المَعْنَى عَنْ كُلِّ واحِدٍ مِنَ المُتَعاطِفاتِ، فكأنَّهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.

قيلَ: إنَّ المُسْلِمينَ أعَدَ اللّه لَهُمْ مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظيمًا، إنَّ المُسْلِماتِ أعَدَّ اللّه لَهُنَّ مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظيمًا، وهكذا، بِخِلافِ العَطْفِ بِالفاءِ كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾ [الصافات: 1 - 3] فَإنَّ الأوْصافَ المَذْكورَةَ في تِلْكَ الآيَةِ ثابِتَةٌ لِمَوْصوفٍ واحِدٍ[1].

سرّ تقديم صفات الذكور على صفات الإناث:

الذَّكَرُ أكملُ وأفضلُ من الأنثى، والأفضلُ مقدّمٌ على المفضول

قدّمَ البيانُ القرآني صفاتَ الذّكور على صفات الإناث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ جريًا على عادةِ القرآن في تقديمِ الذّكور على الإناث؛ لشرفهم وتقديمهم في الوجود، ولأنّ الذّكَرَ أكملُ وأفضلُ من الأنثى، والأفضلُ مقدّمٌ على المفضول.

النساء تبعٌ للرجال في الخلقة والخطاب الشرعيّ، والعرف اللغويّ

والتّقديم موافق لعقيدة الإسلام في أصل الخليقة وبدايتها من أنّ النساء تَبَعٌ للرجال لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر: 6]؛ فكما كانت المرأة تَبَعًا للرَّجُل في الخِلْقة، ناسَبَ أن تكون تَبَعًا له في الخطاب الشرعي، ثمّ إنّ تغليب التذكير في الخطاب القرآني يناسب العُرفَ اللُّغويَّ، جاء في الكتاب: "واعلَمْ أن المذكَّر أخفّ عليهم من المؤنّث لأنّ المذكر أوّل، وهو أشدُّ تَمكُّنًا، وإنّما يخرج التأنيثُ من التذكير"[2].

وجْهُ صَوْغِ الصفات على هيئة اسم الفاعل:

المستحقّون للأجرِ العظيمِ هم الثابتونَ على أصولِ التّشريعِ العظيم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالصفات الواردة في الآية بصيغة اسمِ الفاعل التي تدلُّ على الثبوتِ والدّوام؛ للدّلالة على أنّ الذين يستحقّون هذا الأجرَ العظيم والمغفرةَ من اللّه؛ هم من كانتْ هذه الصفاتُ ثابتةً دائمة راسخةً فيهم، فهم دائمون على الاتّصاف بها في الماضي والحاضر والمستقبل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 24 - 25.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 22.

نكتة الجمع بين وصفَي الإسلام والإيمان:

الإيمانُ هو الأصلُ والأكملُ وأعلى مرتبةً من الإسلام

جَمَعَ البيانُ الحكيمُ بين وصْفي الإسلام والإيمان فذكَرَ ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بعدَ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ وأنّ الإسلامَ مِنْ نُطْقِ الشَّهادةِ والصّلاةِ والصّوم والزكاةِ والحجِّ لا يُعتبر إسلامًا مقبولًا إلا مع الإيمان[1]، فالإيمانُ عظم الإسلام ودعامته[2]، إذن الإسلامُ غير الإيمانِ؛ فالعَطفُ يقتَضي المغايَرةَ[3]، فالإيمانُ أخَصُّ مِن الإسلام؛ لِقَولِه تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: 14]، وفي الصَّحيحَين: «لا يَزني الزّاني حينَ يَزني وهو مُؤمِنٌ»[4]، فيَسلُبُه الإيمانَ، ولا يلزَمُ مِن ذلك كُفرُه، بإجماعِ المُسلِمينَ، فدَلَّ على أنَّه أخَصُّ منه، فالإيمانُ مرتبةٌ بعدَ الإسلام[5]، ولأنّ الإسلامَ مع كونِه أكملَ الأوصاف وأعلاها يمكن أنْ يكونَ بالظاهر فقط، أتبعهُ المحقّق له، وهو إسلامُ الباطن بالتّصديق التّامِّ بغاية الإذعان[6]، فمجيءُ صفةِ الإيمان بعد صفةِ الإسلام ترقٍّ من مرتبةِ الإسلام إلى مرتبةٍ أعلى وأكمل وهي الإيمان.

وجه إيثار لفظ (القنوت):

القنوتُ هو لزومُ الطّاعة مع الخضوعِ ويتناسبُ ترتيبه على الإيمان

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (القنوت) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ فلم يقل: (والطائعين والطائعات)؛ لكون القنوتِ أخصَّ من عمومِ الطاعة، فالقنوتُ هو لزومُ الطّاعةِ مع الخضوعِ والإخباتِ والاستكانةِ، والقنوتُ هو العبادةُ والدّعاء[7]، والاسْتِقامَةُ في طَريقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 21.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 185.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 277.
(4) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (2475)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (57).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 418.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.
(7) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قنت).

الدّين، ويطلقُ على السُّكوتِ في الصَّلاةِ مع طولِ القيامِ فيها والإقْبالِ عَلَيْها[1]، فالقنوتُ يَجْمَعُ الطّاعاتِ كُلَّها مَفْروضَها ومَسْنونَها، وتَرْكَ المَنْهيّاتِ والإقْلاعَ عَنْها، فهو تَمامُ الطّاعَةِ[2]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السياقِ الذي هو ترقٍّ من الأعمّ إلى الأخصّ، فترتيبُ القنوت على الإيمان أنسبُ من ترتيبِ عمومِ الطاعة.

عطف القنوت على الإيمان والإسلام:

القنوتُ من آثارِ الإيمان والإسلام وناشئٌ عنهما

عَطَفَ النّظم الحكيمُ القنوتَ على الإيمان والإسلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾؛ لأنَّ القنوتَ ناشئٌ عنهما[3]، مترتّبٌ عليهما، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الإيمانَ لابدّ وأنْ يتبعهُ العمل، فالقنوتُ يمثّلُ الجوانبَ العمليّة للإيمان وآثاره.

دلالة تعريف صفة الصدق:

كلُّ من اتصّفَ بصفةِ الصدق يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم

لامُ تعريف الصّدق في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ جنسيّةٌ تفيدُ العموم، أي: تشملُ كلّ صادق وصادقة في إيمانهم[4]، وفي عهودهم[5]، وعقودهم ورعايةِ حدودهم[6]، وفي نيّاتهم وأقوالهم، وفي أفعالهم[7]، أي: كلُّ من اتّصَفَ بصفةِ الصدقِ يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم.

دلالة تعريف صفة الصبر:

كلُّ من اتّصفَ بالصبرِ يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم

لامُ تعريف الصبر في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ جنسيّةٌ تفيدُ العموم، أي تشملُ كلّ صابرٍ وصابرة على أمرِ الله ونهيه[8]، وعلى ما يبتليهم اللّهُ به من المصائبِ، وما يأمرهم به من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 418.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 61.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 403.
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 161.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539.
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 61.

الجهادِ في سبيله، وفي البأساء والضّراء[1]، والصابرين والصابرات عن الشّهوات والمعاصي، وعلى الطّاعات في المكره والمنشط[2]، ومن ثمّ فكلٌّ من اتّصفَ بالصبرِ يستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم.

إيثار لفظ الخشوع معرَّفًا دون غيره:

انقيادُ الباطنِ للحقّ مع خوفٍ وتعظيمٍ له يتناسبُ ترتّبهُ على الصبر

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (الخشوع) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالخضوع أو الإخبات أو التذلّل؛ لكونه أنسبَ مع السياق الذي بدأ بالترقّي في درجات العبوديّة، فبدأ بالإسلام ثم الإيمان إلى أنْ وصلَ إلى الخشوع، وهو أقلُّ بالدرجة من الإخباتِ، وأعلى من الخضوعِ والتّذلّل، فكان الخشوعُ أنسبَ لما ورد قبله وبعده من صفات، فالخشوعُ هو انقيادُ الباطنِ للحقّ، ولا يكونُ إلا مع خوفِ الخاشعِ للمخشوعِ له؛ لأنّه يرى فاعله أنّ من يخشعُ له فوقه، وأنّه أعظمُ منه، فلا يكونُ تكلّفًا[3]، ويظهرُ أثره في القلب والصَّوْتِ والبَصَر والجوارح[4]، فالخشوعُ هو الإخلاصُ بالقلب والظاهر، فهو الانقيادُ بإتيانِ جميع القربِ والنّوافل، وتجنّبِ جميع المعاصي[5]، وأمّا مجيءُ لفظ الخشوع معرَّفًا؛ فلإفادةِ العموم، إذ اللامُ جنسيّةٌ تشملُ جنسَ الخاشعين، فكلّ من اتّصفَ بصفةِ الخشوع يدخلُ تحتَ هذا الحكم، ويستحقُّ الأجر العظيم من الله سبحانه.

إيثارُ لفظ التصدّق معرَّفًا دون غيره من الألفاظ:

التّصدّقُ يشملُ الواجبَ والنّفل ويحرّي صاحبه الصدقَ والإخلاص

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (التّصدّق) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالزكاة أو الإنفاق، فلم يقل: (والمزكّين، أو المنفقين)؛ لكون لفظ التصدّق أبلغَ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 403.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 385.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 248.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خشع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.

من الزكاة ومن الإنفاق؛ إذ التصدّقُ يحتوي جَميعَ أَنْواعِ الصَّدَقاتِ والعَطيّات، وبَذْلِ المَعْروفِ والإرْفاقِ[1]، فيدخلُ فيه الزكاةُ المفروضة، وكذلك الإنفاق تطوّعًا وإحسانًا ومعروفًا بين الناس، فالمتصدّقُ هو المؤدّي حقوقَ الله من ماله في الفرضِ والنفل[2]، ولفظ التصدّق من مادة (صدق)[3]، وفيه معنى الإخلاص، وتُقالُ للمتطَوَّع بِهِ، والزّكاةُ تُقال للواجب، ويُسمّى الواجبُ صَدَقةً إذا تحرّى صاحِبُه الصِّدقَ في فِعْله[4]، فالتصدّقُ هو: "تقديمُ الخير إلى الغيرِ بإخلاص؛ دفعًا لحاجته، وعملًا على عونه ومساعدته"[5]، فكانت هذه المعاني أنسبَ مع السياقِ الذي بدأ بالترقّي في الصفات بدءًا من الإسلام ثم الإيمان ووصولًا إلى التّصدق، وأمّا مجيء لفظ التصدّق معرّفًا؛ فلإفادة العموم، إذ اللامُ جنسيَّةٌ تشملُ جنسَ المتصدّقين، فكلّ من اتّصفَ بصفةِ التصدّق يدخلُ تحتَ هذا الحكم، ويستحقُّ المغفرةَ والأجرَ العظيم من الله سبحانه.

سرّ عطف صفة التصدّق على صفة الخشوع:

لن يتصدّقَ إلا من كانَ خاشعًا لله خائفًا من عذابه

أعقبَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ بقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، أي عطفَ التصدّق على الخشوع؛ للمناسبةِ القويّة بينهما؛ فالخشوعُ يبدأ من القلب ويظهرُ آثارهُ على الجوارح، فكان التّصدّق - وهي عبادةٌ ماليّة - من آثار الخشوع، والذي فيه دليلٌ وبرهانٌ على تحقّق هذا الخشوعِ في قلبِ المؤمن، فلنْ يتصدّقَ الإنسانُ إلا إذا كان في قلبه الخشوعُ لله سبحانه، والخوفُ من العذاب ومن العقوبة ومن السؤال يوم القيامة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 269، وصديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 11/ 91.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(4) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (صدق).
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 210.

توجيه المتشابه اللفظي في الآية:

من بلاغةِ القرآن مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ [الحديد: 18] تضعيفان في الصّاد، وتضعيفٌ في الدّال، بما يدلُّ على زيادةِ المبالغة في التّصدق؛ أي: المبالغون في الصّدقات، أيْ: كثيرو التّصدق، ويعطونَ الكثير، كما أنّ السياقَ في الآية هو حديثٌ عن كثرةٍ في التّصدّق ومضاعفةٍ في الأجر على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ [الحديد: 18]، أمّا ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ فيها تضعيفٌ واحدٌ في الدّال، فالسّياقُ حديثٌ عن صفاتٍ تؤهّلُ صاحبها لاستحقاقِ المغفرةِ والأجرِ العظيم، ولذا عبّر بمن يتّصفون بالتّصدّق ولو كان قليلًا، ولو قال هنا: (المُصَّدِّقينَ والمُصَّدِّقاتِ) لَما دخلَ فيهم من يتصدّقون بشيءٍ قليل[1].

دلالة تعريف صفة (الصوم):

كـلّ مـن صـامَ الصيامَ الكامل له مغفرةٌ وأجرٌ عظيم

لامُ تعريف الصوم في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ جنسيّةٌ تفيدُ العمومَ واستغراقَ جميع الأفراد التي تدخلُ تحته، أي: لفظُ الصائمين والصائمات يشملُ كلَّ صائمٍ وصائمة، كما أنّها تدلّ على الكمالِ في الجنس، فيكون المعنى: الصائمين الصيامَ الكامل كما أراده اللّهُ فرضًا كان أو نفلًا لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم.

سرّ عطف حفظ الفرج على الصوم:

الصَّومُ مِن أكبرِ العَونِ على كَسرِ الشَّهوةِ وحفظِ الفروج

عطفَ البيانُ القرآنيّ قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ على الاتّصاف بالصوم في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ بجامعِ أنّ الصَّومَ مِن أكبرِ العَونِ على كَسرِ الشَّهوةِ؛ ناسَبَ أن يَذكُرَ بعْدَه[2]، ويدلّ عليه قولُ النبي اللّه ﷺ: «يا مَعْشَرَ الشَّبابِ، مَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُمُ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإنَّهُ أغَضُّ لِلْبَصَرِ، وأحْصَنُ لِلْفَرْجِ، ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بِالصَّوْمِ فَإنَّهُ لَهُ وِجاءٌ»[3].

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 22/ 5.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 420.
(3) البخاري، صحيح البخاري، رقم: (5066).

فائدة تخصيص الصوم بالذكر:

الصومُ عبادةٌ عظيمةٌ لها خصوصيّة دون غيرها

خُصِّصَ الصَّومُ بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ مع أنَّ الفرضَ منه مَشمولٌ في لفظ الإسلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾، ويَفي صَومَ النّافلةِ؛ تنويهًا بفضلِ الصّوم وأنّه عِبادةٌ عَظيمةٌ، وفي الحَديث: «قالَ اللّه تَعالَى: الصَّوْمُ لي وأنا أجْزي بِهِ»[1]، ولِما فيه مِنْ تَخَلُّقٍ بِرياضَةِ النَّفْسِ لِطاعَةِ اللّه[2].

إيثار لفظ الحفظ على غيره من الألفاظ:

حفظُ الفروج يكون بالمبالغةِ في الحياطة القويّةِ في حراستها

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (الحفظ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالصَّوْنِ والحماية؛ لكونِ لفظِ الحفظ أبلغَ وأوسعَ دلالةً من الصَّوْنِ والحماية، وهذا يناسبُ المبالغةَ في حفظِ الفروج، من خلال الحياطةِ القويّة في حراستها ومراقبتها، ومنعِ أنفسهم من الوَطْءِ الحرام، وصرفِهم عنها كلّ ما يؤدّي إلى الوقوعِ في الحرام، فالحفظُ في اللغة هو مراعاةُ الشيء وحراستُه ومراقبته، والحياطةُ القويّة الضابطةُ له فلا يضيعُ ولا يتفلّت[3]، والمنعُ له بتفقّده ورعايته، وبصرفِ المكارهِ عنه لئلا يهلك[4].

بلاغة الكناية في حفظ الفروج:

حفظُ الفرج كنايةٌ بليغةٌ عن التّعفّف والتّطهّر

حفظُ الفرج في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ كنايةٌ بليغةٌ عن التّعفّف والتّطهّر والتصوّن عن أنْ يضعَ الإنسانُ شهوته في غير الموضعِ الذي أحلّه اللّه تعالى، وأنْ لا يتدنّس باقترابِ قذارةٍ، أو يتلوّث بارتكابِ حرامٍ، فيجتنب الفحشاء ويتحفّظ في طهارة الفرج[5].

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (7492).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 23.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حفظ).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 192، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حفظ).
(5) السيوطي، الاتقان: 2/ 60، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 210.

دلالة ذكر متعلّق ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ﴾:

المبالغةُ في حفظِ الفروج للتّحذير من خطورتها

لم يَذكُرِ البيانُ الحكيمُ للأوصافِ الواردة في الآية مُتعلِّقًا إلّا في موضعين؛ منهما: قوله ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ﴾ فقد نَصَّ على مُتعلَّقِ الحِفظِ وهو ﴿فُرُوجَهُمۡ﴾؛ لِكَونِه مَزلَّةَ العُقلاءِ ومَركَبَ الشَّهوةِ الغالبةِ[1]، فكان في ذكره بيانُ خطورةِ الشّهوات على استقامةِ المسلم، وأثرها فيه، فهي لا تنفكُّ عنه، وبيانُ ضرورةِ الاهتمام بمجاهدةِ النّفس في الحذرِ من خطورتها، ومِن ثمّ زيادة مدحٍ لمن اتّصف بهذه الصفات.

بلاغة الإيجاز بحذف متعلّق ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾:

حذفُ ما يُستحيا من ذكره تأدّبًا وسترًا

مَفعولُ ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه مِن قولِه ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ﴾[2]، والتقدير: والحافظات لها[3]، أو التقدير: والحافظاتها، فحُذف المفعول؛ لأنّ الظاهرَ يدلّ عليه، ولو تأخّرَ الظاهرُ فيه لكان: والحافظين والحافظاتها فروجهم؛ لأنّ الفعلَ الأول هو المُعْمَل[4]، وكذلك تنبيهًا لنا على الإيجازِ قدْرَ المُستطاع في ذكر ما يُستحيا من ذكره؛ تأدّبًا؛ لأنّ أمرَ النساء مبنيٌّ على السَّتْر.

عَطْفُ الوصفِ بالذِّكْر على حفظ الفرج:

دوامُ الذِّكْر يحملُ على المراقبةِ الموصلةِ إلى كمالِ العبوديّة

عطفَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ على الاتّصاف بحفظ الفرج في قوله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾؛ بجامعِ أنّ حِفظَ الفروجِ وسائرَ الأعمالِ لا تَكادُ توجدُ إلّا بالذِّكْر، وهو الَّذي فيه المُراقبة الموصلة إلى المحاضرة المحقّقةِ للمشاهدة المحيية بالفناء[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 22.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 254.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 352.

إيثار لفظ (الذّكر) معرَّفًا:

الـذاكـرون اللـهَ هم من يذكرونه بـقـلـوبـهـم وألـسـنـتـهـم وبجميع أنواع الذِّكْر

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (الذّكر) في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ دون غيره من الألفاظ كالتّسبيح أو التّهليل؛ لاتّساعِ دلالة الذّكر؛ إذ يشملُ كلّ ذكرٍ، فالذّكرُ في اللغة خلافُ النّسيان وهو الحفظ، ويُطلق على الذّكرِ باللسان والقلب[1]، فالمرادُ بالذّاكرين اللّهَ، أي: الذّاكرينه بقلوبهم وألسنتهم بالتّسبيح، والتّهليل، والتّكبير، وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الأذكار، والاشتغال بالعلم لله، ومطالعة الكتب من الذّكر[2]، وفي كلّ حالةٍ من أحوالهم[3]؛ في أدبارِ الصلوات وغُدوًّا وعَشيًّا، وفي المضاجعِ وعند الانتباهِ من النّوم، قال مجاهد: "لا يكون ذاكرًا لله تعالى كثيرًا حتى يذكره قائمًا وجالسًا ومضطجعًا"[4]، وجاء معرّفًا باللام الجنسيَّة؛ للعموم والشمول والاستغراق؛ فيدخل في الحكم كلُّ ذاكرٍ وكلّ ذاكرةٍ لله كثيرًا، فيستحقّون المغفرةَ والأجرَ العظيم منه سبحانه.

سرّ تقييد الذّكر بلفظ الجلالة:

في الـذّكـرِ استحضارُ ما للهِ من صفاتِ الكمالِ والجلال والجمال

نَصَّ البيانُ الإلهيُّ على مُتعلَّقِ الذِّكرِ بالاسم الأعظم وهو لفظُ اللّهِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ لكونِهِ العَلَمَ المُحتوي على جَميعِ أوصافِه؛ ليَتذكَّرَ المُسلِمُ مَن يَذكُرُه، وهو اللّهُ تعالى[5]، وليستحضرَ بالقلبِ واللسانِ في كلّ حالةٍ ما لله من صفات الكمالِ والجلال والجمال[6].

بلاغة حذف متعلّق ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾:

حُذفَ مَفعولُ ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 233، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 431.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 186.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ إيجازًا واختصارًا، وقد دلَّ عليه ما قبْلَه مِن قولِه ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ﴾[1]، والتقديرُ: والذّاكراته[2]، فحذفَ لأنّ الظاهر يدلّ عليه، ولو تأخّرَ الظاهرُ فيه لكان: والذاكرين والذاكراته الله كثيرًا؛ لأنّ الفعلَ الأول هو المعمل[3].

الإيجازُ من بلاغةِ القرآن الكريم

دلالة الوصف بالمفعول المطلق ﴿كَثِيرًا﴾:

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الذكرَ بالكثرةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾؛ للإشارة إلى أنّ المذكورين في جميعِ هذه الأحوال يذكرون اللّهَ، ويكون إسلامهم وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنيّة صادقةٍ لله، ولأنّ الإكثارَ مِنَ الأفعالِ البدنيّة متعسّرٌ قد يمنعُ الاشتغالُ ببعضها من الاشتغالِ بغيرها بحسبِ الأغلب، بخلافِ عبادة الذّكر فلا يمنعُ منها أيّ عملٍ؛ إذ لا مانعَ من أنْ يذكرَ المسلمُ اللّهَ وهو آكلٌ أو شاربٌ أو ماشٍ أو نائمٌ أو مشغولٌ ببعض الصنائع والحِرَفِ، على أنّ جميعَ الأعمال صحّتها أو كمالها بذكر الله تعالى وهي النيّة، ولذا ختمَ الأوصاف بقوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ يعني أنّهم في جميع الأحوال يذكرون اللّهَ، كما أنّ وصفَ الذّكرِ بالكثرة يتناسبُ مع ما ورد في السورة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: 21]، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: 41]، ولأنّ اللّهَ تعالى في أكثرِ المواضع حيثُ ذكرَ الذّكرَ قرنه بالكثرة[4].

ذِكْرُ الله كثيرًا ليس بمتعسّرٍ وهو يدخلُ في جميع العبادات

سرُّ ترتيب الصفات في الآية:

قرَّرَ العلماءُ وجهَ التّرتيب في هذه المعطوفات بعدّة أمور منها:

تقديمُ الأظهرِ على الظاهرِ والمسبَّبِ على السببِ بلاغةٌ قرآنية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 22.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 539، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 254.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 169، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 461.

الظّاهر والأظْهر، والسّببُ والمسبّبُ، والتّعدي والقُصور؛ فقدّمَ الإسلام لظهوره وخفاءِ الإيمان، فالإسلامُ هو الوصفُ الأوّلُ الأعمُّ الأشهرُ من أوصافِ أهلِ هذا الدين[1]، وقدّمَ الإيمانَ على القنوتِ؛ لأنّه أظهرُ من القنوت، ولأنّ "القانتَ هو القائمُ بالطّاعة الدائمُ عليها"، قاله الزمخشري؛ فيُعْرفُ إيمانُ الإنسان بمجرّد مخالطته، ولا يُعلمُ أنّه قانتٌ إلا بدوامِ مخالطته، وقدَّمَ القانتين على الصادقين والصابرين؛ لأنّ الصادقَ هو الذي يصدُق في نيّته وقولهِ وعمله، والصّابرُ الذي يصبرُ على فعلِ الطّاعة وعن المعاصي، فحُصولُ وصْفِ القنوت لهم مع الإسلام سببٌ في اتِّصافهم بالصدقِ والصّبر، ورتبةُ المسبَّب أنْ يكون بعد سببه، ثمّ مَنْ حصلت له هذه الأوصاف لا ينبغي له أنْ يثقَ بعمله، بل لا بد أنْ تكونَ سببًا لأنْ يبقى خائفًا خاشعًا؛ لأنّ هؤلاء مع فعلِهم هذا كلِّه متَّصفون بالخوفِ والخشوع.

وأخَّر (المتصدّقين) إمّا لأنّ ما قبلَه أوصافٌ قاصرةٌ، وهو وصفٌ بطاعةٍ متعدّية للغير، وأخَّر الصيام؛ لأنّه أمرٌ عَدَمي راجعٌ لترْك الأكلِ والشربِ والاستمتاع، وجميعُ ما قبلَه أمرٌ وُجوديّ، والوجودُ أشرفُ من العدم، وللسببِ ذاته قدّم الصَّومَ على حفظِ الفروج؛ لأنّ الصومَ تركٌ غيرُ دائمٍ في زمانٍ ما، وهو النّهارُ فقط، وحفظُ الفروج تركٌ دائمٌ في كلّ الأزمان، فالصومُ أقربُ إلى الوجود، وحفظُ الفروج أبْعدُ منه، وأخَّرَها عن المتصدّقين؛ لأنّ الصدقات مَظِنَّةُ الغنى، ومنْ حصَل له الغنى فهو متمكّنٌ من شهوتَيْ بطنِه وفرجه، فأفادَ أنّهم مع ذلك يتركون شهوةَ بطونهم بالصوم، وشهوةَ فروجهم بحفظها عن المحارم، فجاء هذا شبه الاحتراس والتّكميل.

وأخَّرَ الذاكرين اللّه كثيرًا؛ إشارةً إلى قوله ﷺ: «من كان آخر قوله لا إله إلا اللّه دخلَ الجنة»[2]؛ أو لأنّه كالعلّة الغائيّةِ التي قال الحكماء فيها: "أوّلُ الفكرةِ آخرُ العمل"، فأفادَ أنّ فعلَهم ذلك كلَّه إنّما كان لذكرِهم اللّه تعالى، واستحضارِهم مقامَ الهيبة والإجلال[3].

وقد يكون وجهُ التّرتيب هو أنّه بدأ أولًا بالانقيادِ الظاهر، ثم بالتّصديق، ثم بالأوصاف

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 351.
(2) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (977).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 297.

التي بعدهما تندرجُ في الإسلام وهو الانقياد، وفي الإيمان وهو التّصديق، ثم ختمها بخلّةِ المراقبةِ وهي ذكرُ اللّه كثيرًا[1].

نكتة التعبير بالفعل ﴿أَعَدَّ﴾ مادةً وصيغةً:

لمْ يقلِ سبحانه: (لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ)، وإنّما عبّر بلفظ ﴿أَعَدَّ﴾ فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ لإفادةِ العنايةِ بهذا الأجر، وبمن أُعِدّ من أجله، فهو كأنّه مُعَدٌّ لهم من الآن وهو ينتظرهم، أو أنّه مُعَدٌّ على الحقيقة، فالإعدادُ في اللغة هو تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ، وتجهيزه وتحضيره[2]، وفي هذه المعاني مزيدٌ من التّرغيب للاتّصاف بهذه الصفات لقاءَ ما أعدّه اللّهُ لأصحابها من الأجر العظيم.

ينتظرُ المتّصفين بصفاتِ أصولِ التّشريع أجرٌ عظيمٌ مُهيّئٌ من الآن

وقد ورد بصيغة الماضي؛ للدّلالة على بيانِ حتميَّةِ هذه المغفرةِ وهذا الأجر العظيم، وعدمِ إمكانِ خُلْفِه، أو للإشارة إلى أنّ الجنّة ونعيمها معدّةٌ منذ الآن للمؤمنين.

وجه التّصريح بلفظ الجلالة:

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بالاسم الجليل الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ مُضمَرًا، وإنّما صرّح به في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾؛ لكونه " العَلَمَ المُحْتَوي عَلَى جَميعِ أَوْصافِهِ، ليَتَذَكَّرَ المُسْلِمُ مَنْ تَذَكَّرَهُ، وهوَ اللّه تَعالَى"[3]، وللإشارةِ إلى أنّ المطيعَ وإنْ جاوز الحدّ في الاجتهاد يبقى مُقصِرًا عن بلوغِ ما يحقّ للّه تعالى، وإلى صغرِ الذنوب إذا نُسبتْ إلى عفوهِ سبحانه، والمعنى: أعدَّ اللّهُ الذي لا يقدرُ أحدٌ أنْ يَقْدُرَهُ حقّ قدرهِ، مع أنّه لا يتعاظمه شيء[4].

لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يَقْدُرَ اللهَ سبحانه حَقَّ قَدْرِه فهو الذي لا يتعاظَمُه شيءٌ

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿لَهُم﴾:

قدّم البيانُ الإلهيّ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عدّ).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

اختصاصُ المتّصفين بهذه الصفات بالأجرِ العظيم، واهتمامٌ بهم

ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَا﴾، ولم يقلْ: (أعدّ مغفرة وأجرًا عظيمًا لهم)؛ اهتمامًا بمن كانتْ هذه صفاته، وتنبيهًا على أنّ ما أعدّه اللّهُ من المغفرةِ والأجرِ العظيم لهم خاصٌّ بهم دون غيرهم، وكذلك مراعاةً للفاصلة القرآنية في الآيات.

علّة التّعبير بـ﴿لَهُم﴾ دون (لهنّ):

جمعُ الإناثِ مع الذكور في ضميرٍ واحدٍ من بابِ التّغليب والاختصار

عبّر البيانُ الحكيمُ بـ﴿لَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ دون (لهنّ) أو (لهم ولهنّ)؛ وذلك من باب التغليب؛ كما هي عادةُ القرآن، أي: جَمَعَ الإناثَ مع الذكور وأدرجهم في الضمير[1]؛ لأنّ جمعَ المؤنّث يدخلُ في المذكّر، ولا يصحُّ العكس، وذلك اختصارًا.

سرّ تنكير قوله ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾:

المتّصِفون بهذه الصفات لهم مغفرةٌ عظيمةٌ عامّة من كلّ الذنوب

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ في قَولُه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَا﴾؛ للتّعظيم، أي: مغفرةً عظيمةً[2]، ولإفادةِ العموم، فتشملُ كلَّ ما وقعوا فيه من هفواتهم وما أتوه من سيئاتهم فيما يتعلّق بكلّ أصلٍ من الأصول التي ذُكرت من صغائر أو كبائر تابوا منها.

نكتة حذف متعلّق المغفرة:

المغفرةُ عامّةٌ لمنْ كانتْ هذه صفاتهم لا عتابَ فيها ولا عقاب

حذفَ البيانُ القرآنيُّ المتعلّقَ في ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ اختصارًا؛ للعِلْم به، ولإفادةِ العموم؛ إذ لو اكتفى بذكرِ أحدِ أفرادِ المتعلّق لاقتصرَ المعنى عليه، والمراد: مغفرةً من كلّ الذّنوبِ المتعلّقة بكلّ أصلٍ من الأصول التي ذُكرتْ في الآية، مع اشتراطِ التّوبةِ من الكبائر كما دلّت عليه دلائلُ الكتاب والسنّة، وكذلك حذفه تلطّفًا بالمؤمنين الذين هذه صفاتهم؛ فلا عقابَ ولا عتابَ، ولا ذِكْرَ لأيّ سببٍ من الأسباب[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 480.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الأحزاب، ص: 274.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

وجه تقديم المغفرة على الأجر:

التَّخلية قبلَ التَّحليَةِ وطردُ المنغّصاتِ قبل جلبِ الخيرات

قدّمَ البيانُ الإلهيُّ المغفرةَ على الأجر في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا﴾؛ للإشارة إلى أنّه تعالى قد غسَل هفواتهم وما أتوه من سيّئاتهم التي كانتْ سببًا في تلوّثِ أرواحِهم بماءِ المغفرة، "بحيث يمحو عينه وأثره، فلا عتابَ ولا عقاب"[1]، ثمّ كتبَ لهمُ الثّوابَ العظيمَ الذي لا يعْرفُ مقدارَه إلّا هو، أي التّخليةُ قبل التّحلية، والواقعُ أنَّ أحدَ هذين الأمرين يطردُ كلّ المنغّصات، والآخرُ يجلبُ كلَّ الخيرات.

دلالة عطف الأجر على المغفرة بالواو:

الجمعُ بين الفضلِ بالتّجاوز والتّفضّل بالكرم والرحمة

عَطَفَ اللّهُ سبحانَه ما أعَدّهُ للمؤمنينَ المتّصفينَ بأصولِ التّشريعِ الإسلامي من الأجر العظيم في قوله: ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمَا﴾، على ما أعدّه لهم من المغفرةِ العظيمة الشاملةِ لذنوبهم في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ﴾ بالواو؛ ليجمعَ لهم بين الفضْلِ بالتجاوزِ وما تبعهُ من التفضّل بالكرم والرحمة[2].

ثم إنّ المفعول به ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ والمعطوف عليه ﴿وَأَجۡرًا﴾ كلاهما متعلِّقٌ للفعل ﴿أَعَدَّ﴾ فيصحُّ الإخبارُ به عن كلِّ واحدٍ من الموصوفات المتعاطفات باعتبارِ المعطوف على مفعوله؛ لأنّ الأجرَ العظيمَ يصلُحُ لأنْ يُعطى لكلِّ واحدٍ، ويقبلُ التّفاوتَ، فيكونُ لكلٍّ من أصحابِ تلكَ الأوصاف أجرُهُ على اتّصافه به، ويكونُ أجرُ بعضِهم أوفرَ من أجرِ بعضٍ آخر.

نكتة التّعبير بالأجر وتنكيره:

الأجرُ العظيمُ لا يُقادَرُ قَدْرُهُ يستحقّه من عملَ بهذه الصفات

التَّعبيرُ بالأجرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمَا﴾ يدلُّ على التّكريم والجبرِ لكلّ من يتّصفُ بصفةٍ من هذه الصفات، وكأنّ ما يأخذهُ من هذا الكرمِ الإلهيّ ليس عطاءً، وإنّما هو أجرٌ مُستحِقٌّ له على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 353.

طيبِ ما عمله؛ لأنّ الأجرَ في أصلِ مادّته يدلُّ على الكِراءُ عَلَى العَمَلِ، وجَبْرُ العَظْمِ الكَسيرِ[1]، أي: فيه دليلٌ بنفسه على عظمته، وأمّا تنكيرُ الأجرِ فللدّلالة على زيادة هذه العظمة، فهو أجرٌ عظيمٌ فخيمٌ لا يقادرُ قدره، فالأجرُ من العظيم الكريم لا يكونُ إلا عظيمًا فخيمًا.

فائدة وصف الأجر بـ﴿عَظِيمًا﴾ مُنَكَّرًا:

أجرٌ عظيمٌ أعدّهُ اللهُ للمتّصفين بهذه الصفات

وصْفُ الأجرِ بالعظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ تأكيدٌ على عظمةِ هذا الأجر، وكون هذه العظمة مطلقةً دليلٌ آخرَ على سعةِ أطرافها وترامِيها، ومن البديهيّ أنّ الشيءَ الذي يعدّهُ اللّهُ عظيمًا يكون خارقًا في عظمته، والمعنى: أعدَّ لهم مثوبةً وجزاءً لا يحيطه الوصف، على ما عملوه من طاعات.

دلالة صيغة فعيل في (عظيم):

مبالغةٌ في عظمِ الأجرِ الذي أعدّه اللهُ للمتّصفين بهذه الصفات

وصفَ النّظمُ الحكيم الأجرَ بأنّه عظيمٌ في قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو صيغةُ مبالغةٍ على وزنِ فعيل؛ لإفادةِ المبالغة في عظمِ هذا الأجر الذي أعدّهُ اللّهُ للمتّصفين بهذه الصفات، فهو ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشر، فيكون في ذلك حثٌّ وترغيبٌ للاتّصاف بهذه الصفات لاستحقاقِ هذا الأجر العظيم والفوزِ به.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشوع والإخبات والتذلّل:

الترقّي في درجاتِ العبودية يناسب لفظ الخشوع

الإخباتُ أعلى من الخشوع، والخشوعُ أعلى من التّذلّل، فالخشوعُ لا يكونُ إلا مع خوفِ الخاشعِ للمخشوعِ له؛ لأنّه يرى فاعله أنّ من يخشع له فوقه، وأنّه أعظمُ منه، فلا يكونُ تكلّفًا، فهو انقيادُ الباطنِ للحقّ[2]، ويدلّ في أصله على التّطامُنِ والسُّكونُ والتَّذَلُّلُ[3]، ويظهرُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 248.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (خشع).

أثره في القلب والصَّوْتِ والبَصَر والجوارح[1]، في حين أنّ الإخباتَ هو الاطمئنانُ[2]، والمخبتُ هوَ المطمئنُّ بِالإيمان، والمُجْتَهد بِالعبادَة، والملازمُ للطّاعةِ والسُّكون، فالإخباتُ على ما يوجِبهُ الاِشْتِقاق هوَ الخضوعُ المستمرُّ على اسْتِواء[3]، للمخافةِ الثابتةِ في القلب مع الإطمئنان ودوام الإخلاص والإنابة للّه[4]، وأمّا التذلّلُ فهو ضَعْفٌ وعجزٌ واسْتِكانَةٌ وضدّه العِزُّ والقوَّةُ[5]، فالتَّذلّلُ إظْهارُ العَجزِ عَن مقاومةِ من يتذلّل لَهُ، والذَّليلُ المفعول بِهِ الذلّ من قِبلِ غَيره في الحَقيقَة، وإن كانَ من جِهَة اللَّفْظ فاعِلًا، ولِهَذا يُمدحُ الرجل بِأَنَّهُ متذلّل ولا يُمدح بِأَنَّهُ ذليلٌ؛ لِأنّ تذلُّلَه لغيره اعترافه لَهُ، والاِعْتِرافُ حسنٌ، ويُقال: العلماء متذلّلون للّه تَعالَى، ولا يُقال أذلّاء لَهُ سُبْحانَهُ[6]، وإيثارُ استعمال الخشوع في الآية دون غيره؛ لمناسبته للسياق إذ بدأ السياق بالتَّرقّي في درجاتِ العبودية فبدأ بالإسلام ثم الإيمان إلى أنْ وصلَ إلى الخشوع، وهو أقلُّ بالدرجةِ من الإخبات، فكانَ الخشوعُ أنسبَ لَما وردَ قبله وبعده من صفات.

الحفظ والصَّوْن والحماية:

الحفظُ أوسعُ دلالةً من الصَّوْن والحماية، فالحفظُ هو مراعاةُ الشَّيءِ وحراستُه ومراقبتُه، والحياطةُ: القوّة الضابطة له فلا يضيعُ ولا يتفلّت[7]، ويكون حفظه بالمنعِ للشيءِ بتفقّده ورعايته، وبصرفِ المكارهِ عنه لئلّا يهلك[8]، أمّا الصَّوْنُ: فهو حفظُ الشيء ووقايتُه ممّا

حفظُ الفروج تحتاجُ إلى المبالغةِ في الحياطة القويّة الضابطةِ لها

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، وعمدة الحفاظ: (خشع).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خبت).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 250.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/ 21.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (ذلّ).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حفظ).
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 192، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حفظ).

يُفسِده[1]، والحمايةُ هي الدفاعُ عن الشَّيءِ والمنعُ عنه[2]، ومن هنا ناسبَ استعمالُ لفظ الحفظ في الآية للمبالغةِ في حفظِ الفروج، بالحياطةِ القويّة في حراستها ومراقبتها، ومنعِ وصرفِ عنها كلّ ما يؤدّي إلى الوقوع في الحرام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (صون).

(2) الجوهري، الصحاح، وأبو بكر الرازي، مختار الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (حمي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»